

التعددية اللغوية في البلدان المغاربية

في نظر الباحث والأديب التونسي الراحل صالح القرماضي

حالة تونس أنموذجا

د. محمد يحياتن

مقدمة:

إن اهتمامنا وانشغالنا بهذا الموضوع مردّه إلى كون المسألة اللغوية في البلدان المغاربية كافة لا تزال تستأثر باهتمام الدارسين وأهل السياسة بله شرائح واسعة من المجتمع، رغم انقضاء عقود برأسها على استقلال هذه البلدان. والحال إن سرّ هذا الأمر مأتاه العروة الوثقى القائمة بين المسألة اللغوية والهوية والثقافة والخصوصية. فالسجال القائم حاليا يتعلق في الواقع بالسياسة اللغوية الواجب اعتمادها. فلئن كانت البلدان المغاربية قد تبنت التعريب سبيلا للنهوض بالعربية وإحلالها محل لغة المستعمر، فإن ذلك يستدعي المعارضة الشديدة.

ولمّا كان المغفور له صالح القرماضي ممّن عنوا بهذه المسألة سواء بوصفه لسانيا أو مبدعا أو مترجما، فقد ارتأينا أن نتحرى موقفه منها علنا نلفي فيه الجواب الشافي لهذه المشكلة المؤرقة. هذا مع العلم بأننا نفترض في مستهل دراستنا هذه بأن اللساني والمبدع باللغات الثلاث: العربية الفصحى والدارجة والفرنسية والمترجم الممتاز الذي كانه ستتنصف بالموضوعية في الطرح والحصافة في معاملة اللغات المتعايشة من حيث المنزلة التي يجب أن تتبوأها كل واحدة منها.

1- المدونة المعتمدة

لاستقراء موقف صالح القرمادي من التعددية اللغوية عمدنا إلى مجموعة من المقالات والدراسات التي أنجزها خلال مشواره العلمي والأدبي الثري، وهي على التوالي:

La situation linguistique actuelle en Tunisie: problèmes et perspectives, in Revue Tunisienne des sciences sociales, n° 13, 1968

Language in Tunisia, Bourguiba Institute of modern languages in Tunisia, Tunis 1983

Revue Alif: Table ronde sur le bilinguisme, n°1, 1971, pp. 13-52-

- دورة الألسنية في المساهمة في التعريب، بحث ألقى في المؤتمر الثاني للتعريب، الجزائر من 12 إلى 20 ديسمبر 1973، مجلة الأصالة، العدد 18/17، 1973-1974.

- قصيدته بعنوان "حب لغوي"، مجلة ثقافة، العدد 8، 1975.

إن دراسات القرمادي المعتمدة ترتقي كما هو ملاحظ إلى السبعينات من القرن الماضي، وقد كتبها صاحبها في خضم النقاش الحامي الذي جرى حول المسألة اللغوية والثقافية، فهذه الفترة التي تلت مباشرة استرداد الاستقلال بعد ليل الاستعمار الطويل، كانت فترة طرح الأسئلة الكبرى حول الثقافة الوطنية وما ينبغي أن تكون عليه. فلئن كان الإجماع قائماً حول وجوب تنزيل اللغة العربية المنزلة التي هي جديرة بها في البلدان المغاربية كافة فإن الإجماع

هذا لم يحصل حول الكيفية التي يجب أن يتم وفقها النهوض بالعربية ولا فيما ينبغي أن تكون عليه اللهجات الأخرى واللغات الأجنبية. فكا يقول صالح القرمادي نفسه في تلخيصه للمشكلة:

"...وقد احتد النقاش الإيديولوجي في بلدان المغرب العربي حول مسألة التعريب منذ الاستقلال وحم وطيس الحر القلمية في هذا الشأن بين مختلف الفئات الاجتماعية والثقافية المتعايشة في صلب المجتمع المغربي - فمن مدافع عن التعريب التام فورا إلى ذائد عن ازدواجية اللغة ومن قائل بوجوب استعمال اللهجات الدارجة إلى مناصر لفكرة الفرانكوفونية حتى أن المتصفح للصحف والمجلات المغربية أصبح يجد فيها جميع المواقف والانتماءات في هذا الصدد"⁽¹⁾

يا ترى أين يمكن إدراج صالح القرمادي بناء على تصنيفه هذا؟ وما هي في المحصلة السياسة اللغوية المثلى في نظره التي يمكن للبلدان أن تسير على هديها؟

3 - المنطلقات الضرورية لسياسة لغوية حصيفة في نظر القرمادي

في البداية، يمكن القول بأن موقف القرمادي رحمه الله قد اتصف بالواقعية والموضوعية، ولا غرو في ذلك. ولا شك أن هذا الأمر مرده إلى تشبعه بتعاليم اللسانيات الحديثة التي تقضي بالنظر إلى الظاهرة اللغوية نظرة موضوعية أي كما هي لا كما نريد. ويقول في هذا الباب وهو بصدد الحديث عن التعريب: "ومن الطبيعي في مثل هذه الملابسات التاريخية وأمام عظمة العمل الذي يستدعيه التعريب على أسس عصرية ناهضة أن تفتح في وجه الألسنيين

- صالح القرمادي، دور الألسنة في المساهمة في التعريب، مجلة الأصالة، العدد 18/17، 1973-1974، ص 144.¹

المغربيين من مغاربة وجزائريين وتونسيين آفاق عريضة للنشاط العلمي وإمكانيات لا تحصى للبحث والتصنيف من ذلك:

- ميدان شاسع للتقيب العلمي في حقل البحوث الألسنية مثل: وصف كامل للواقع اللغوي والاجتماعي - اللغوي في البلاد وصفا علميا دونما تفريط في أي عنصر من عناصره، - تحليل مختلف اللغات المتعايشة بالبلاد من الناحية الألسنية، - القيام بدراسات مقارنة فيقارن أصحابها فيها بين تراكيب مختلف هذه اللغات من الناحية الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية... " (1)

وهذا والحق يقال ما سعى إليه القرمادي بإنجازه أبحاثا هامة وثلة من تونس، قامت على وصف الاستعمالات اللغوية في الجمهورية التونسية. فكيف يتبدى هذا الواقع في أبحاثه؟

أ- الواقع اللغوي التونسي: تعدده وتعدده

كما أسلفنا ينطلق القرمادي من وصف الواقع اللغوي التونسي ويرى بأنه موسوم بالتعدد والتعدد في آن واحد وبأن هذا التعدد ضارب في القدم وليس أمرا جديدا طارئا، والتعدد مصدره تعايش عدة لغات من بربرية وعربية بمستوياتها العام والفصيح فاللغة الفرنسية، مع الإشارة إلى أن مزاحمة العربية للبربرية كان من القوة بحيث كادت أن تقضي عليها قضاء مبرما، فالبربرية لم يعد ينطق بها سوى 1% من التونسيين القاطنين بالجنوب.

- المرجع السابق، ص 144.

1 - اللغة العربية

1-1 - العربية الفصحى الكلاسيكية

يرى القرمادي بأن هذه العربية محدود مجالها، فلا نلفيها إلا في التلاوات القرآنية وخطب الجمعة وبعض البرامج الإذاعية والمقالات الوعظية والشعر وبعض القصص القصيرة.

1-2 - العربية الفصحى الحديثة

هذه العربية متأثرة كثيرا بالفرنسية لاسيما على صعيد التراكيب، وهي اللغة التي تستعملها الصحافة والمجلات والبرامج الإذاعية والتلفزية والمسرحيات وخطب الحكام والمحاضرات وهي أكثر استعمالا في التعليم الابتدائي والثانوي.

1-3 - العربية الوسطى

وتسمى أيضا "العربية المهذبة" و"العربية المبسطة". ومن مزاياها خلوها من الإعراب وتأثرها ببني الداريجة الصرفية والمعجمية. وهي اللغة التي يتخاطب بها التونسيون المتعلمون كما يستعملها الحكام في جل خطبهم.

1-4 - العربية الداريجة

هي لغة أغلبية التونسيين، وتستعمل في الأحاديث اليومية البسيطة سواء من قبل المتعلمين أو الأميين، ولا تتفك تتأثر بالفصحى.

1-5 - المزيج العربي - الفرنسي

يتعلق الأمر هاهنا بظاهرة المزج بين اللغتين العربية والفرنسية التي تشاهد لدى الإطارات التونسية التي تتقفت وتكونت أساسا باللغة الفرنسية.

1- 6 - اللغة الفرنسية

تنبوأ اللغة الفرنسية منزلة ممتازة في المشهد السوسيوولساني في تونس. فلما كانت لغة الحداثة والتقنية"، فهي تستخدم لصياغة جل المشاريع التي تهم الحياة الوطنية. وهي من جهة أخرى لغة بعض اليوميات والمجلات العلمية والثقافية باستثناء حوليات الجامعة التونسية. كما تستعمل في برامج الإذاعة والتلفزة، فضلا عن انتشارها في الإدارات ومختلف الأطوار التعليمية وهي لغة العلوم مع بعض الاستثناءات القليلة.

على صعيد المنطوق - أي الاستعمالات الشفوية - يلاحظ أن الفرنسية تعتمد في المراكز الحضرية لدى الطبقات المتعلمة لاسيما النخب الميسورة⁽¹⁾.

ب- الصراع اللغوي في تونس

قد يبدو لأول وهلة أن هذا التعدد اللغوي لا يطرح مشكلة بالنظر إلى التوزيع الوظيفي الذي هي عليها اللغات هذه. ونقصد بالتوزيع اللغوي كون كل لغة تضطلع بوظائف بعينها مما يوحي بأن هناك تكاملا فيما بينها. غير أن الأمر ليس كذلك، مما يدفع صالح القرمادي لوصف هذا الوضع بـ "التعايش غير السلمي". وهذا بالنظر إلى طبيعة الصراعات الخفية والظاهرة القائمة بينها وكذا من حيث موقف الناطقين منها.

1- الثنائية اللغوية

المقصود بالثنائية اللغوية كما معروف: La diglossie الموجودة بين الفصحى والعامية. ووجه الصراع هاهنا يكمن في نظر القرمادي في النظرة الملقاة على العربية الدارجة وهي

¹ - S.Garmadi, La situation linguistique en Tunisie, P. 4-5

نظرة احتقار وازدراء بوصفها - كما يرى البعض - مسخا للعربية الفصحى أو على حدّ تعبير القرمادي: "Une forme abâtardie de l'arabe classique" وما يترتب عن ذلك من وجوب إقصائها من مجالات التعليم والأدب⁽¹⁾.

2- الإزدواجية اللغوية

ويتعلق الأمر بالعربية الفصحى والفرنسية بوصفهما لغتي حضارة وثقافة. بعد الاستقلال، اتجهت النية إلى ضرورة تنزيل اللغة العربية في المنازل التي كانت الفرنسية قد تبوأتها ردحا طويلا من الزمن، سواء في مجال التعليم أو الإرادة والاقتصاد إلخ اقتناعا بأن التعريب وجه من وجوه الاستقلال والسيادة وباعتبار اللغة العربية مقوما من مقومات الشخصية والهوية. غير أن القضية طرحت مشاكل واستثارت صراعات لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، ويمكن حصر هذه القضية في العناصر التالية:

- فريق يدعو إلى التعريب الفوري
 - فريق يدعو إلى التعريب التدريجي
 - فريق يدعو إلى الإبقاء على الإزدواجية اللغوية باعتبار اللغة الأجنبية نافذة على العالم والعلوم العصرية.
 - فريق يدعو إلى النهوض باللغات وترقيتها.
- وما إلى ذلك مما أشار إليه القرمادي في أبحاثه ومقالاته.

¹: أنظر: Revue Alif, n° 1, 1971, p. 35

3- موقف القرمادي من الواقع اللغوي التعددي

في البداية، لا بدّ من الإشارة إلى أن الدارس قد كان وفيًا للمنطلقات التي طلب التسليم بها، وهي ضرورة القيام بوصف حال اللغات المتعايشة كخطوة لا بد منها للإقدام على سياسة لغوية ما. ويتجلى هذا في الأبحاث التي أنجزها بنفسه أو التي أنجزت في كنف مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، والتي نشر الجزء الأكبر منها في "المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية" أو في دراسات المركز ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- دراسات لفنولوجيات بعض اللهجات التونسية

- دراسات للألفاظ المستعملة في كتب القراءة العربية من التعليم الابتدائي

- دراسة بعض مظاهر الازدواجية اللغوية بتونس

- مواقف الطلبة الجامعيين من الازدواجية اللغوية

- المستويات المختلفة لاستعمالات العربية الفصحى في تونس.

3. 1- المبدأ الأساس: نبذ الإقصاء

لعل أول ما يلفت الانتباه هو نبذ القرمادي للإقصاء وأعني به عدم طمس أي لغة من اللغات المتعايشة، وهذا ما يجعلني أقول بأن القرمادي ممن ينتصرون للتناول الإدماجي لمسألة اللغة: *Approche intégrative*. فاللغات في نظره لها الحق في الحياة والاستعمال. ونستشف هذا في مقالة مشهورة نشرها بجريدة *Le monde* (1974/11/8). عنوانها "كيف نكتب بلغات ثلاث؟ Comment écrire en trois langues? في مقاله القيم هذا

يتساءل: "هل يجب أن تموت الكلمة؟ لا أعتقد ذلك، لذا أقول لنفصح عن ذواتنا إما بالعربية الدارجة أو العربية الكلاسيكية أو الفرنسية. لتكن الكلمة ثم تأتي ساعة الحساب".

Alors faut-il que le mot meurt? Je ne le pense pas moi qui écris dans les trois langues, car au mortel silence, je préfère la déchirure, et à la bouche close ne serait-ce qu'un murmure... Aussi, devant toute bouche trilingue ou cousue, je dis: liberté et cracher le morceau en arabe classique ou parlé en français roté ou éternué: que le mot soit et puis viendront les comptes.

غير أن في هذه المقولة الطريفة الجميلة عبارة تتوقفنا لا محالة ومنها نعبر إلى تصور القرمادي لما ينبغي أن تكون عليه منزلة كل لغة من اللغات المتعايشة وهي:

(1)Que le mot soit et puis viendront les comptes

3. 2- الموقف من اللغة العربية بمستوياتها الفصح والعامي

ويقول القرمادي بأن "بلدان المغرب العربي تواجه في الفترة الراهنة من تاريخها مشكلة هامة جدا يتوقف عليها تطورها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، عينا مشكلة التعريب، ذلك الواجب التاريخي الحتمي الذي لا مناص من تحقيقه لاستعادة الذات الآلية وبناء مستويات الذات المتجددة المتحركة على أساسها"(2).

¹ - S. Garmadi, Comment écrire en trois langues? In Le Monde du 8/11/1974

² - أنظر القرمادي، دور الألسنية في المساهمة في التعريب، ص 143.

واضح من هذا الذي أوردنا أن القرمادي يقف إلى جانب الداعين إلى التعريب. ولكنه ولحسن الحظ لا يقف عند هذا فقط بل يتطرح أسئلة الكيف، أي كيف يجب أن ننجز التعريب. وفي هذا الباب، يطرح الأسئلة التالية: "كيف سنتمكن من الآن نفسه من إدخال التعديلات والتحويلات التدريجية اللازمة في تعليم اللغات الأجنبية باعتبارها أداة هامة تسمح بالتفتح الضروري على العالم العصري؟" بله يذهب إلى أبعد من هذا حين يقول:

"ما هي العربية التي ستكون لغة غدنا ويتكلمها ويفهمها ويكتبها ويقرأها كل فرد منا؟ أفعلا تكون لغة القرآن أم لغة ابن قتيبة أم ابن منظور أم نجيب محفوظ أو علي الدوعاجي أم لغة الإذاعة والصحافة أم لغة بعض القادة والزعماء العرب أم اللغة التي يتعامل بها الناس في الشارع أو بالمنزل؟" (1)

والجواب في نظره ليس بالأمر السهل، لهذا نجده يقول مصيباً: "الجواب يكون عن طريق العمل العلم الرصين المثابر المتوقف أولاً وبالذات وفي نطاق مساعدة الحكومات على تعاون الألسنيين والعلماء المربين، على أن تكون الفكرة الأساسية التي نقتدي بها في هذا المضمار هي التقريب قدر الإمكان بين مستويي لغتنا أي مستواها الفصح ومستواها المستعمل الشائع بين الناس..." (2).

وهذا الانشغال - أي ضرورة التقريب بين الفصحى والعامية - كان حاضراً حين ضبط الرصيد اللغوي الأساسي لتلاميذ الطور الأول من التعليم الابتدائي، حيث رأى اللسانيون والمربون المغاربة بأن هذا الرصيد لا بد أن يشتمل على الألفاظ الشائعة في الاستعمال اليومي والتي

1 - المرجع السابق ص 140.

2 - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

هي ذات أصل فصيح، كما نجد هذا الانشغال قائماً في إبداعات القرمادي نفسه أكانت قصة قصيرة أو شعراً أو مسرحية.

وبالنسبة للعربية الفصحى، يرى القرمادي أنه من الضروري بمكان النهوض بها حتى تستطيع أن تفصح عن الحداثة بمختلف تجلياتها، ويشهد على ذلك ما يقوله في قصيدة جميلة عنوانها "حبّ لغوي":

"... أحبك متحولة العلم والتقنية

إلى تطور العلم والتقنية

من سيداتي إلى أواني سادتي

إلى هلمّ نخرق عادتك وعادتي

والله لا أحبك لا

يا لغتي الأخوية

عجوزاً بوراً

كرائحة العفن

في لانهائية الكفن

رصاص أفاظك تبين

في أذن الأصم

لا يدخل صدور الأصدقاء إلا بالخناجر"⁽¹⁾

إن انتصاره للتعريب التدريجي المخطط الرصين يصدر عن قناعة عميقة وهذا بالنظر إلى الجهود الجمة الواجب بذلها حتى تساوق العربية التطورات الهائلة الجارية في العلم في مجال العلوم والتقنية. بالنسبة إلى مسألة الازدواجية اللغوية في التعليم يبدو القرماذي متحفظاً، ويرتكز موقفه على الأبحاث العلمية التي ترى بأن الازدواجية اللغوية لها آثار حسنة طيبة على أصحاب الذكاء العالي في حين أنه ذو عواقب وخيمة على الأغلبية من التلاميذ⁽²⁾.

3.3- موقفه من اللغة الفرنسية

سبقت الإشارة إلى أن القرماذي ممن يقولون بوجوب إيلاء اللغات الأجنبية المكانة التي هي جديرة بها بوصفها بوابات على العالم والعلم العصري. غير أننا نعدم في هذا المضمار التفاصيل إن صحّ القول فلسنا ندري ما إذا كانت هذه اللغات تدرس بوصفها مواد كغيرها أم يجب اعتمادها لتدريس المواد الأخرى.

بالنسبة للغة الفرنسية التي تحلّ منزلة ممتازة في المشهد اللغوي التونسي بله المغاربي بعامة، والتي اعتمدها القرماذي في إبداعاته، فإننا نجده يعلل ذلك بكونه يشعر بالانعتاق أثناء استعماله لها، وهو ما لا يلفيه في العربية الفصحى التي تكبله بسبب الطابع الجامد لبنائها التركيبية والصرفية القديمة، هذا بالإضافة إلى أن للغة الفرنسية من الانتشار في ربوع تونس ما لا يجعلها تعد لغة أجنبية⁽³⁾.

¹ - صالح القرماذي، حبّ لغوي، مجلة ثقافة، العدد 8، تونس.

² - S. Garmadi, La situation linguistique en Tunisie, P8

³ - S. Garmadi, Revue Alif, op.cit. p.37

إن ما يمكن الخلوص إليه بعد استتطاقنا نصوص القرمادي رحمه الله هو أنه اتصف بالموضوعية في تناوله المسألة اللغوية على خلاف أولئك الذين تميزوا بالشطط والغلاة. وعندنا أن هذه الموضوعية والواقعية تكمن في ضرورة الاحتفال بكل اللغات المتعايشة دونما إقصاء لهذه أو تلك وتنزيلها المنزلة التي هي أهل لها في جو من التسامح المتبادل.